اللغة والكـــلام..

❑ د. بدر الدين عامود *

كُتب الكثير عن اللغة بعامّة، واللغة العربيّة بخاصة، الأمر الذي يمنح المختص فسحة من الأمل والتفاؤل. بينما لم يكتب عن الكلام إلّا القليل وهو ما يدعو للآسف والتساؤل والمقصود في الحالتين تلك الأدبيات التي تصدر باللغة العربية على وجه التحديد.

ويبدو جليّاً للمتتبع أن الأعمال التي تناولت اللغة العربيّة تركّز في الغالب على اثنتين من وظائفها باعتبارها مكوّناً هاماً من مكونات هويتنا. فهي – في رأي كثير من الكتّاب – وعاء يحفظ للأمّة تراثها ووسيلة نقل هذا التراث من جيل إلى جيل من ناحية، وأداة للتعبير عن الأفكار وتبادل الخبرات من الناحية الثانية. ومع عميق التقدير لايجابية الدافع الذي يحرّك كتابنا لدعوة المعنيين في الدوائر والمؤسسات الاجتماعيّة لتمكين هذه اللغة والارتقاء بها لتجد المكانة اللائقة لدى أهلها وبين لغات العالم،

فإنّ من المفيد التذكير بأنّ للاضطلاع بهذه المهمة الساميّة شروطه الذاتيّة والموضوعية، وأنّ الاكتفاء بالخطاب العاطفي والحماسيّ دون تمهيدٍ أو مواكبةٍ بفعلٍ مؤثّرٍ لفائدة توفير تلك الشروط أو بعضها يجعل من رغباتنا مصدر قلقٍ وإحساسٍ بالضعف والقصور.

الكلُّ يستشعر خطر استمرار انحسار فاعلية اللغة العربية منذ نيف وسبعة قرون.

ويمتزج هذا الشعور بإحساسٍ عالٍ بالثقة بما يختزنه أبناء هذه اللغة من طاقةٍ خبر التاريخ آثار تحويلها إلى فعلٍ إنسانيّ مبدع وتوجيهها وفق معايير خلقيّة نبيلة وقيم إنسانيّة عليا وعبر هذه العلاقة بين الوجود والوجوب تتوالى صيحات استمالة الضمائر واستنهاض العزائم لكي تستردّ اللغة العربيّة اعتبارها ومكانتها.

وقد يجد القارئ شبهاً بين مضامين تلك الأعمال ومواقف كتابٍ أوربيين ودعواتهم عشية نهضة قارتهم إلى العمل للحاق بالعرب وبلوغ لغاتهم شأو اللغة العربية. فقد عبّر الشاعر

* أكاديمي من سورية.

الايطالي بترارك بوضوح تام عن هذه المواقف حين قال :" ماذا ! لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستين، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس. وبعد العرب لا يسمح لأحدٍ بالكتابة ! لقد جارينا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً، وبذلك جارينا وتجاوزنا جميع الأمم، وتقولون إننا لا نستطيع الوصول إلى شأو العرب ! يا للجنون ! ويا للخبال ! بل يا لعبقرية ايطاليا الغافية أو المنطفئة " (5، كب).

إن لكثير من لغات العالم، والحية منها بخاصة محاسن ومزايا جمّة. ولغتنا العربية واحدة من هذه اللغات. والدعوة إلى العناية بها وتقديمها إلى الناشئة والدارسين بطرائق علمية تأخذ بمعطيات العصر وتطوير قواعدها وإثرائها بالمفردات والمصطلحات التي تفرزها الاكتشافات العلميّة والمبتكرات التقنيّة بعد تعريبها وتعميمها على المؤسسات المعنيّة، والمتابعة الدائمة لسير استعمالها.... إلخ إنّما تعكس مطلباً ملحاً لا يرتاب أحد في أبعاده الوطنية والقوميّة والثقافيّة والإنسانيّة. ولكن ثمّة مطلباً آخر يسبغ على تلك الأبعاد طابعاً علمياً، ويسقط عنها تهمة الذاتيّة والانحياز، ويعيد إلى لغتنا بعدها التاريخي، ويبرز المزايا التي مكنتها من احتلال صدارة لغات العالم على مدى قرون من الزمن، والاحتفاظ حتّى الآن بموقع متقدم والصمود في قرون الضعف والانحلال. فاللغة العربية، كغيرها من اللغات، هي نظام إشاري كلامي يتوسط كلّ ما نقوم به من نشاطات مع أشياء العالم الخارجيّ وظواهره ومع غيرنا من أبناء المجتمع ومع أنفسنا. وهذا النظام ليس وليد راهننا أو صنيعة جيلنا، وإنّما هو جانب من التراث الثقافي الذي ترجع بدايات نشأته إلى حقب تاريخيّة موغلة في القدم.

وعلى هذا فإن اللغة ظاهرة اجتماعيّة ذات بعدٍ تاريخيٍ. وعلينا دراستها، كسائر الظواهر، باستخدام المنهج التكوينيّ- التاريخيّ لما له من آليات تمكّن من التعرف على جوهرها، وتجاوز ما يتراءى على سطحها وما يبدو للحسّ من صفاتٍ خارجيّةٍ ثانويّةٍ، وربطها بالشروط والعوامل المؤثّرة في حركتها منذ نشأتها حتّى لحظة دراستها مروراً بكافة المراحل والأطوار التي مرت بها. وبحيازة هذه المعارف يصبح من اليسير الوقوف على مكامن ضعفها ومواقع قوتها، والقيام بما تستلزمه تقويتها وتوجيه مسارها.

وقمين بهذا المنهج الذي أرسى المفكر العربيّ ابن خلدون دعائمه ووطدها مفكرون غربيون في القرن التاسع عشر وبنوا عليها مقارباتهم، أن يلقى لدى مفكرينا وباحثينا ما يستحق من تقدير ولعلّ التطرّق إلى مزاياه هنا هو دعوة إلى استخدامه في ما تتناوله دراساتنا من ظواهر طبيعيّة أو إنسانيّة. ذلك لأننا نعتقد أن تطبيقه يجنب الباحث الوقوع في أخطاء الجنوح إلى العاطفة بسبب تغليب الذاتي على الموضوعيّ، والوقوع في أسر الانفعال الذي قد تستجره قوة المثيرات الحسيّة العارضة وتخطّي عتبة اقتصار دراسة الظاهرة المعنيّة على مشهدٍ أو مقطع محدد من تاريخها. إنّه، باختصار، يسدّ ثغرات المنهج الوضعيّ الإمبيريقيّ (الخِبري) بنسخه المختلفة.

وقبل العودة إلى بدايات ظهور اللغة والتعرّف على أصولها وجذورها، وفق ما يمليه هذا المنهج، ينبغي التعرّف على علاقتها بالكلام أو النشاط الكلامي. فمفهوم اللغة ومفهوم الكلام مفهومان غير متطابقين، بل إنهما متباينان بضمّ كلّ منهما في ثناياه دلالاته وقائع متمايزة. فإذا كانت اللغة بالتعريف منظومة إشارات كلاميّة تتوسط مستويات وأشكال علاقاتنا بالعالم الخارجيّ، فإن الكلام هو فعل استعمال الفرد لتلك الإشارات.

وبينما تؤلف اللغة واقعاً اجتماعيّاً موجوداً خارج الفرد، يعدّ الكلام نشاطاً يستوعب الفرد فيه اللغة عبر مراحل حياته لتكون مكوناً من مكوناته النفسيّة. وهذا يعني أن اللغة ظاهرة اجتماعية خارجيّة تتحول عن طريق التربية وتفاعل الفرد مع عناصر محيطه إلى ظاهرة نفسية داخلية، أيّ إلى كلام. ويعكس هذا الفهم حقيقة أن اللغة هي وسيلة المعاشرة، والكلام هو المعاشرة ذاتها (4، 127- 129).

ومع تحوّل اللغة من الخارج إلى الداخل، أي إلى كلام، تتبدى وظائفها بشكلٍ واضح. ففي المحيط الأسري وفي المؤسسات التعليميّة والدوائر الاجتماعيّة المختلفة تجري عملية هامة تتمثل في استيعاب الفرد للخبرة الاجتماعية والإنسانيّة المتراكمة. وعبر هذه العملية لا تظهر وظيفة اللغة كوسيلة لنقل التراث فحسب، بل ولحفظه وتطويره أيضاً زيادة على كونها أداة اتصال بين الأفراد.

وهناك وظيفة أخرى للغة تضاف إلى تلك الوظائف. فاللغة تزوّد الطفل منذ نهاية مرحلة ما قبل المدرسة بالقدرة على التخطيط لأفعاله. وهذه لحظة هامة في تطور الإنسان، حيث يشرع فيها برسم أهداف أفعاله ثمّ وضع خطط لتلك الأفعال والانتقال، ومن ثمّ، إلى تنفيذها، وأخيراً مقارنة ما يتوصل إليه من نتائج بما رسمه من أهداف.

ومن نافل القول أن أداء النشاط الكلامي لمهماته وللوظائف اللغوية على النحو المطلوب يتوقف على درجة تطور هذا النشاط وظهور أنواعه وترقيتها (اللا إرادي، الإرادي، المنولوجي، الحواري، السرديّ...) ومستوياته (الخارجيّ، الشفهيّ، الكتابيّ، الداخليّ) ونضج آلياته السيكوفيزيولوجيّة (الجماعيّ، الفرديّ، الترداديّ، الاتصاليّ...) والأعضاء التي تعدّ الأساس الماديّ للقيام به (المحلّلات السّمعيّة والبصريّة والحركيّة والمناطق الحائيّة المختصّة)

ولا يقتصر هذا النشاط على النطق بالكلمات وسماعها وكتابتها وقراءتها وفهمها فقط، بل ويشمل الحركات التي تقوم بها أعضاء الجسم لدى القيام به كالإيماءات وتغيّرات عضلات الوجه والعينين والكتفين والرجلين والجذع وغيرها. وهذه الحركات لا تورّث عن طريق العضويّة، وإنّما هي توجد خارج الطفل، أيّ في المجتمع، وعليه أن يمتلكها بعد ولادته كوسائل للتعبير والمعاشرة. ولما كانت هذه الوسائل التي تؤلّف جزءاً هاماً من نشاط الكلام لا تنتمي إلى اللغة، فإن الكلام يكون أكثر غنىً من اللغة. وما يزيد من غناه ويجعله يتخطى اللغة في قدرته على التعبير والتأثير ما يمنحه للفرد من مرونة في تكييف مبنى الكلمة وغلافها الخارجي على النحو الذي يعكس حالته الانفعاليّة أو هدفه وقصده أو رأيه في أمر ما. فكلمة " أخ" التي لا يتغير وقعها أو أثرها في النفس لدى قراءتها في المعجم، مثلاً، قد ينطق بها أحدنا بالشكل الذي يعبّر فيه عن الطمأنينة والحميمية وقد يحمّلها شحنة انفعاليّة سالبة ليعرب عن رفضه واستنكاره. ويمكنه أن يحمّل دلالات مختلفة للجمل من مثل " وصل أحمد البارحة " بنقل التشديد من كلمة إلى أُخرى.

وإذا نظرنا إلى علاقة اللغة والكلام من زاوية أخرى تبيّن لنا أن اللغة أكثر غنى واتساعاً من الكلام. فهي تضمّ عشرات الآلاف من الكلمات التي تدل على كلّ ما يطاله العقل البشريّ من ظواهر وموضوعات وما تملكه من صفات وما بينها من صلات. في حين أن ما يعرفه

الإنسان من كلمات ليس سوى جزء غير كبير مما تحتويه اللغة. ويضاف إلى هذا عجزه عن الالتزام دوماً بالشكل والحركة اللذين بهما يصلح اللفظ ويستقيم النطق. ويتبدى ثراء اللغة وشمولها أيضاً في تفوق نظامها النحويّ وبيانها وبلاغتها على ما يلمّ به الفرد في هذا الشأن (2، 129).

ليس في الحديث عن تمايز اللغة والكلام واختلافها تناقض بين المفهومين، بل إنّه تدليل على ما بينهما من علاقة جدليّة تتجلى عبرها وحدتهما وتكاملهما. والتأكيد على جدليّة هذه العلاقة يساعد على الكشف عن كيفية نشأة كل منهما وفحص حلقات تطوره وتأثيره في تطور الآخر خلالها.

وعلى أساس المعطيات الماديّة التي تجمعت واستخدمت في معانيها والتدقيق فيها تقنيات متطورة صار بالإمكان تقدير المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن انطلاقه رحلة الكلام واللغة وتعود هذه الانطلاقة – حسب تقديرات العلماء – إلى حوالي مليون سنة مضت. وقد عرفت الرحلة خلال هذا الزمن منعطفات كثيرة، كان كل واحد منها محطة هامة تستوقفها فيها تحولات نوعية في المنظومة الإشاريّة المذهلة.

ومادام الأمر يتعلق بالإشارات وبالتشوير الذي كان يقوم به الإنسان الأول قبل مليون سنة، فإنّه من الضروري أن نتخلى، ولو مؤقتاً، عن صورته التي ارتسمت في أذهاننا وكأنّه نوع من القردة العليا. والحقيقة أن ذلك الإنسان يختلف اختلافاً بيناً عن تلك الحيوانات من حيث بنيته العضويّة وسلوكه بوجه عام. وهذا التفوق العضويّ والسلوكيّ هو الذي مكنّه عبر 800 ألف سنة من القيام بتلك التحولات الكبيرة والانتقال بهذين الجانبين إلى مستوى آخر أعلى، وزيادة الفارق بينه وبين الحيوانات العليا ليصبح جوهرياً.

إن كلاً من إنسان جاوه Pithecanthropus وإنسان بكين Sinanthropus وإنسان نياندرتال Neanderthal ثمّ الإنسان الشبيه hominoid والإنسان الحجريّ Paleolith والإنسان الكروماني أو الإنسان القبتاريخي Prehistoric هو عنوان لحقبة من تطور الإنسان حتّى بلغ حالة الإنسان العاقل Homo sapience بوصفه نقله نوعيّة على طريق تلك الرحلة.

يزعم فريق من العلماء أن القردة الشبيهة بالإنسان تمتلك منظومة إشاريّة صوتيّة وحركيّة، أيّ لغة خاصة تشبه لغة البشر. وتقوم هذه المنظومة بدور الوسيط بين القردة بعضهم ببعض، وبينهم وبين موضوعات العالم الخارجيّ فتجعلها قادرة على التفاهم فيما بينها والتعبير عن مشاعرها. وواقع الأمر أن المتابعة الدقيقة لسلوك هذه الكائنات الحيّة تظهر أن الأصوات التي تصدر عنها والحركات التي تقوم بها لا تحمل أيّ معنى أو فكرة أو مفهوم. إن ما يُراد بها هو التعبير عن الحالات الانفعاليّة لعضو القطيع حيال ما يدركه أو يتصوره، أو عن وضعه لدى قيامه بحلّ مشكلة ما. فهي لا تتجاوز حدود الدلالة على دعوة أو تهديد أو استمالة أو طلب أو رجاء أو استئذان أو إبعاد أو توجيه أو عرض أو ما شابه ذلك مما يرغب في التعبير عنه خلال بحثه عن الطعام أو في أثناء الرعاية المتبادلة والعناية بالصغار والعلاقة الجنسيّة أو شعوره بالخطر والإعداد للدفاع والقيام به.

صحيح أن ما تصدره القردة هو إشارات، ولكنّها في بنيتها ووظائفها لا ترقى إلى مستوى

اللغة. فالإشارات الصوتيّة لا يتجاوز عددها بضع عشرات من الأصوات غير الواضحة أو المفهومة. والحركيّة منها لا يتعدّى أداؤها التعبير عن الحاجات الطبيعيّة. وما ينبغي لفت الانتباه إليه هو أن معظم هذه الإشارات هو حصيلة تجربة عضو القطيع الخاصة. وأن آليات تعلمه لها هي آليات مثبتة في برنامج العضويّة الذي تتوارثه الأجيال. ولعلّ نتائج التجارب التي حاول الباحثون فيها تعليم القردة (أو غيرها من الحيوانات) بعض الكلمات أو الجمل تثبت صحة ما نقول. فالكلمات التي تعلمها القرد بعد سلسلة طويلة من المحاولات لم تحمل بالنسبة له تلك المعاني والدلالات التي تحملها بالنسبة للإنسان. وبقي نطقه لها مجرّد مثير صوتي خالٍ من أيّ معنى كأيّ صوت يلفظه في موقف معين أو يسمعه فيستجيب له على نحو محدد (6).

وما يدعم هذا الرأيّ هو غياب إمكانيّة أن ينقل كبار الحيوانات خبراتهم إلى صغارهم عن طريق الإشارات التي يتقنونها وما يقوله بعض الباحثين حول اكتساب صغار الحيوانات لأفعال قام الكبار بأدائها مرات عديدة أمامهم ليس سوى نتيجة لعملية محاكاة خاصة لا تخرج عن إطار تعزيز قدرة الحيوان على التكيف.

وحال الإشارات عند إنسان جاوة أو بكين لا يختلف كثيراً عما يقابلها عند الحيوانات العليا. فالإشارات الصوتيّة التي كانت تصدر عن أيّ منهما لم تكن تتألف من مقاطع متباينة ومتنوعة، بقدر ما كانت أصواتاً متغايرة تعكس حالة الفرد النفسيّة وتعبّر عن بعض المواقف الإدراكيّة الآنيّة والمباشرة في مجرى تفاعله مع العالم الخارجيّ. إلّا أن ما يستدعي الانتباه هو اختلاف عضويّة إنسان ذلك العصر عن عضويّة القردة الشبيهة بالإنسان. ويكمن هذا الاختلاف في انتصاب قامة الإنسان القديم ومشيته العموديّة واعتماده في تنقله على رجليه، الأمر الذي ساعد على تحرير يديه ومكنهما من القيام بأفعال عديدة ومعقدة بعض الشيء كالالتقاط والإمساك والتقليب والقذف والسحب والقطع وغيرها، وأكسبهما المرونة والقدرة على تلمس الأشياء والتعرف على صفاتها بمساعدة البصر، ومهد الطريق أمام التآزر الحسيّ (البصريّ) والحركيّ (اليدويّ). ونجم عن انتصاب القامة أيضاً اتساع مجال نشاطه البصريّ وتنامي قدرته على رؤية الأشياء وتركيز انتباهه نحوها ومتابعة حركتها واختبار خصائصها والتحضير للاستجابة المناسبة.

ويظهر هذا الاختلاف كذلك في حجم ووزن الدماغ عند الإنسان القديم والقردة العليا. فدماغ إنسان جاوة أو بكين أكبر بقليل من مخ الشمبانزيّ. وتصل زيادته عنه في الوزن إلى الضعف تقريباً. ويزداد الفارق بصورة ملحوظة لدى مقارنة إنسان النيا نديرتال بالقردة العليا، حيث يصل إلى الضعف من حيث الحجم وأكثر من ثلاثة أضعاف من حيث الوزن (1، 34 - 39).

ولقد ساعدت هذه الشروط الفيزيولوجيّة – التشريحيّة على تطور الحاجة إلى المعاشرة لدى البشر القدامى، ومهدت تدريجيّاً لظهور النشاط الجماعيّ المنتج الذي كان الحاضنة لتحضير الأدوات واستعمالها للحصول على ما يشبع حاجاتهم ويضمن لهم البقاء. وتدخل الإشارات ضمن الأدوات التي يعدّ الشروع بتحضيرها منعطفاً حاسماً في تطور اللغة ونشوء الوعي.

ويربط علماء الانتربولوجيا لجوء البشر القدامى إلى تحضير الأدوات بظهور نمط جديد من أنماط حياتهم وتطور عملية التواصل فيما بينهم. فقد لعب هذا النشاط دوراً هاماً في تزويدهم بوسائط رقابة بعضهم ومتابعته لنشاط البعض الآخر وتبادل الخبرات والمهارات والانطباعات. وتمثل هذا الدور كذلك في تعزيز الحاجة لدى أولئك الذين يمارسون هذا النشاط إلى التواصل والسّعيّ للوصول بمنظومة الإشارات الكلاميّة إلى المستوى الذي يلبي هذه الحاجة. فالإشارات التي انتقلت من إنسان جاوة وبكين إلى إنسان النياندرتال لم تكن قادرةً على أداء تلك المهمّة والاستجابة للحاجة المتزايدة إلى المعاشرة (1، 43).

وينبغي التوقف قليلاً عند الأساليب الممكنة للصلة القائمة بين الصوت وصورة الشيء أو الموضوع. فقد نشأ الكلام بآليته الفيزيولوجيّة والنفسيّة نتيجة اقتران الصوت الذي أصدره أو سمعه الإنسان والحركات التي تتولى القيام بها أعضاء النطق وصورة الموضوع الذي استجرّ هذه الاستجابة المركبة والانطباع الذي تخلفه عدداً من المرات. ولما كان لحاء الدماغ عند الإنسان القديم بعيداً عن إحلال التوازن بين التنبيه والاستجابة، بل وبسبب عجزه عن القيام بعمليات الكفّ الداخليّ فقد كان الجموح والتسّرع يسيطران على استجابة العضويّة وحركاته الخارجيّة (الإيماءات، حركات الوجه، حركات عضلات الجهاز الكلاميّ) ممّا كان يطلق العنان لانفعالاته التي غالباً ما كانت تصحبها مركبات صوتيّة غير مفهومة.

ومع ارتباط هذه الأصوات بالموضوعات والظواهر الخارجيّة التي تستدعيها تشكّلت شيئاً فشيئاً انعكاسات شرطيّة عند الإنسان القديم ثبتت فيها تلك الأصوات التي رافقت تلبية إحدى حاجاته. وبهذا المعنى كانت التلبية المتكررة للحاجة العضويّة وسيلة تعزيزٍ للاستجابة الصوتيّة الموجهة والإدراك المناسب لها. وبذا ترسخت في الدماغ الارتباطات الايجابيّة والمفيدة وكُفّت السلبيّة وغير الضروريّة بين الأصوات من جهة، والمثيرات الخارجيّة من جهة ثانيّة.

وعلى هذا النحو حلّ ارتباط المركبات الصوتيّة غير المفهومة بالموضوعات الخارجيّة أو بصورها محل ارتباطها بالانفعال. فالصوت – الآن- لم يَعُد وسيلة للتعبير المباشر عن الانفعال، وإنّما أصبح وسيلة للدلالة المقصودة والمباشرة على الموضوع أو صورته. ونتيجة هذا التطور يكون الصوت قد اكتسب في مجرى الممارسة العمليّة والتواصل الاجتماعيّ شكلاً ومضموناً جديدين. وما ذلك الشكل وهذا المضمون سوى الكلمة ببنيتها الماديّة ومعناها المثاليّ ووظائفها الاجتماعيّة والنفسيّة.

غير أن هذا لم يكن نهاية المطاف لرحلة اللغة، وإن كان منعطفاً مهماً في تاريخها. فبالانجازات التي أُحرزت خلال الحقب التي استمرت حوالي 800 الف سنة يطوي الإنسان النياندرتالي صفحة الكلام غير المفهوم ويفتح صفحة الكلام المفهوم.

لقد بلغ نشاط الإنسان النياندرتالي، الذي يعدّه العلماء الحلقة الوسيطة بين إنسان جاوه وبكين والإنسان الكروماني (القبتاريخيّ)، درجةً عاليّةً نسبيّاً من التطور على الصعيدين العمليّ والاجتماعيّ. وفي هذا التطور يكمن سبب امتلاكه للمهارات التقنيّة (تحضير أدوات العمل

) ووسائل التواصل المتقدمة (الإشارات الصوتيّة والحركيّة).

ولئن كان النشاطان العمليّ والاجتماعيّ في الأزمنة القديمة يحدثان معاً في عملية واحدة، فإننا نلمس بداية انفصالهما عند النياندرتاليين. فقد أضحى بمقدور الجماعة البشريّة آنئذٍ تبادل الخبرات العمليّة بوساطة الكلام ودونما حاجة إلى التعامل المباشر مع أشياء العالم الماديّ. وتلك خطوة هامة تلوح عبرها معالم الدور الكبير الذي ستلعبه الكلمة في الارتقاء بتفكير الإنسان إلى مستوى التعميم والتجريد. وفي ذلك الكلام بدأت عناصر الكلام المفهوم بالتشكل تدريجيّاً دون أن يمتلك بَعدُ خصائصه. فنحن لا نرى هنا جملة مؤلفة من كلمات، بل كلمات تلعب دور الجمل.

وعلى الرغم من أن إنسان النياندرتال كان يفتقد للمنطقة الجداريّة الصدغيّة التي تُناط بها وظيفة الكلام، فإن تفكيره وصل في تطوره إلى درجة لا بأس بها، وبلغ نشاطه العمليّ مستوى من النضج والتعقيد رأى فيه الكثير من العلماء بذور الفن وتجلياته الأوليّة. ولقد استطاع في كلامه تجاوز الكلمات المنفصلة والاستجابات الصوتيّة ذات الإيقاع الواحد التي تذكر بأصوات القردة الشبيهة بالبشر من مثل (و – و- او) للتعبير عن إحساسها بالخطر و(ملا- ملا – ملا) لتعكس شعورها بالرضا، وصار بوسعه استخدام منظومة معقدة من المركبات الصوتيّة المترابطة للدلالة على مفاهيم منفصلة لم تكن موجودة لدى أسلافه وحالات أوليّة من التصورات ومجموعة من المشاعر (1، 12).

وعلى امتداد عشرات الآلاف من السنين التي فصلت الإنسان النياندرتالي عن الإنسان الكروماني بعد انقضاء شطر من المرحلة المعروفة بمرحلة الإنسان الحجريّ شهدت اللغة والكلام تطوراً تدريجيّاً نتيجة التغيّرات التي طرأت على عضوية إنسان ذاك العصر، وخاصة تلك التي عرفتها أعضاء النطق الصوتيّة إضافة إلى زيادةٍ ملحوظةٍ في دقّة ومرونة أصابع اليدين وما واكب ذلك من ظهور مناطق الكلام في القشرة الدماغيّة أدّت إلى زيادة قدرة الدماغ على تحليل وتركيب الأصوات ونطقها بوضوح.

وبأخذ هذه التغيرات الهامة بالاعتبار يمكن للباحث أن يتوقع تعددّ وتنوّع وسائل الإنتاج التي استطاع الإنسان الكروماني أن يحضّرها وتشابك الروابط الاجتماعيّة بين أفراد التجمع الذي ينتمي إليه وتطور الأدوات التي يستخدمها في النشاطين الإنتاجيّ والاجتماعيّ. ومن الطبيعيّ أن يتحدث المختصون في دراسة إنسان تلك المرحلة عن وجود منظومة صوتيّة متغايرة ومتمايزة ونظام نحويّ متقدّم ووفرة من الكلمات وقدرة بشريّة على التمييز بين الفونيمات (الوحدات الصوتية) عن طريق السمع ونطقها بصورة واضحة بفضل التناسق بين الأعضاء المختصّة، وبعبارة محددة عن كلام مفهوم قوامه كلمات وجمل تحمل مفاهيم معيّنة وتعبّر عن أحكام متمايزة.

غير أنّ بلوغ اللغة والكلام هذا المستوى لم يجعل وضعهما خلوّاً من النقائص سواء تعلّق الأمر بالمفردات وحجمها أم بالمؤشرات الصوريّة. فالكلمة عند إنسان النياندرتال كانت تحمل معاني كثيرة دون أن تنتظم وفق قواعد نحويّة. كما كانت اللغة تفتقر إلى النوع والجنس والعدد والضمير....إلخ. وكان عليهما أن ينتظرا أزمنة طويلة لتتغير فيها معاشرة البشر وتغدو أكثر تشعباً وتعقيداً، ويتطور خلالها نشاطهم

الاجتماعيّ والإنتاجي وتظهر أوجه وميادين جديدة له.

ولقد أدّى تطور المعاشرة والنشاط على هذا النحو إلى الارتقاء بمختلف جوانب اللغة والكلام. فكانت المفردات تغتني بأسماء الأشياء والموضوعات الخارجيّة وبالكلمات الدالة على صفاتها وعلاقاتها وبالأفعال التي تعبّر عن حركتها وحركة البشر وأفعالهم في الأزمنة المختلفة.

لم تتوقف اللغة والنشاط الكلاميّ في الماضي ولن تتوقفا في المستقبل عن حركتهما المتقدمة والصاعدة، فقد كانت هذه الحركة ولا تزال وستظل ما دام هناك أُناس يعملون ويبدعون ويتواصلون ويتبادلون الخبرات والمشاعر. وهذه العمليّة التطوريّة إنّما تمليها حاجة المجتمع إلى التّقدم و تجليات البحث عن تلبيتها في الإبداعات العلميّة والتقنيّة والأدبيّة والفنيّة التي تمدّ الوعي بوسائل وشروط ارتقائه ورفع قدرات الإنسان على التحليل والتركيب والتعميم والتجريد.

وفي المرحلة المتقدمة من التاريخ البشريّ تمّكن الإنسان من إبداع وجه آخر للغّة والكلام، ونعني الكتابة. والكتابة كمنظومة من الإشارات الماديّة المرئيّة لم تظهر بصورة جاهزة وخلال فترة وجيزة، وإنّما كان ظهورها ثمرة نشاط مبدعٍ وواعٍ وهادفٍ ومتواصلٍ لأجيال من البشر عبر عصور تاريخيّة طويلة. وهي، خلافاً للكلام المفهوم، تتمّ في غياب المرسل إليه عن ساحة الإدراك البصريّ مع فرضيّة وجوده ذهنياً وبصورة مجردة. وهذا ما يستدعي من جانب الكاتب تركيزاً للانتباه وإعمالاً للفكر خلال قيامه بنشاط الكتابة.

وبينما لا يتعدى أثر الكلام الشفهيّ جمعاً محدوداً من الناس في وقتٍ ومكانٍ محددين، يتجاوز أثر الكتابة الحواجز المكانيّة والحدود الزمانيّة ليطال سكان المعمورة في الحاضر والمستقبل.

إن هذه السّمات العامة للكتابة تجسد قدرات عقليّة وحسّيّة وحركيّة متقدمة لم تكن متوفرةً لدى الإنسان في الأزمنة القديمة. فالكتابة تتطلب دقّة ومرونة عالية من جانب اليد ولاسيما الإبهام والسبابة منها، وتآزراً بينها وبين العينين يوجهه تفكير مجرد وقدرة على وضع خطط داخليّة واضحة للأفعال الخارجيّة. ولذا كان من الطبيعيّ أن يقترن ظهور الكتابة بتوافر هذه الشروط ممّا اقتضى مراكمة خبرات وجهود أجيال من البشر عبر مئات الآلاف من السنين.

و فيما يتعلّق بهذا الموضوع يمكن النظر إلى نشاطات البشر والأصوات العفويّة وغير الواضحة والحركات التي كانت تصدر عنهم دون أن تعني شيئاً خارجيّاً باعتبارها بداية الخيط الذي ارتبطت به الكتابة، في بقايا الطعام والأدوات وآثار الأقدام وغير ذلك ممّا كان يصادفه البشر في تلك الحقبة هو وسيلة عرضيّة وعفويّة للاتصال وعلامة تدّل على وجود آخرين كانوا هنا. كما أن أصوات البشر وأصوات الحجارة ومشهد النار والدخان المتصاعد هي إشارات توحي لهم بوجود آخرين في ذلك المكان وفي هذه اللحظة.

ولعلّ هذه الوقائع وشبيهاتها هي التي دفعت الإنسان إلى القيام بأفعال مقصودة مماثلة بهدف الاتصال بالآخرين. فصار يضع بعض الأشياء أو يترك آثاراً معينة عن قصد لتكون بالنسبة له نقاط علّام وتوجّه. وفي مجرى هذا النشاط

ارتبطت وظيفة الاتصال والتبليغ بالكثير من الأشياء الخارجيّة. ولكنّ هذه الإشارات – الوسائل التي ابتكرها بنو البشر فيما بعد كعقد الحبال وتجميع الحصى ورميها وتحزيز العصي وجذوع الأشجار، وإن كانت الجذور غير المرئيّة للكتابة، لا تزال بعيدة عنها.

ومع اهتمام الإنسان في مراحل لاحقة بالأهمية الاجتماعية للموضوعات التي كانت عاملاً مساعداً في اتصاله بغيره شرع باتخاذ صورها وسيلة للمعاشر ة. وهذا ما دفعه إلى محاولة رسم الموضوعات الهامة بالنسبة له مدشناً بذلك مرحلة جديدة هي، في نظر كثير من العلماء، الأولى من مراحل الكتابة التي يدعونها بالمرحلة التصويريّة pictography.

وتجسد هذه المرحلة أو هذا المستوى قيام الإنسان برسم الموضوعات التي تثير لديه انفعالاتٍ ايجابيّةٍ أو سلبيةٍ على جذوع الأشجار والصخور وجدران المغاور والكهوف كوسيلةٍ لنقل مشاعره إلى الآخرين. وكان تصوير الموضوعات الخارجة في بدايته جزءاً مرافقاً للنشاط العمليّ الماديّ الجماعيّ. ومن ثم أخذ ينفصل عنه ليتحول تدريجياً إلى نشاط مستقل يعتمد على التصورات الحسية.

وممّا يلاحظ على الكتابة التصويريّة هو غياب أيّ ارتباط مباشر لها باللغة. فالرسم الذي يقوم عليها لا يقدّم رموزاً مجردة بقدر ما يعكس إدراكات وتصورات حسيّة. وقد تطور هذا النوع من الكتابة في طوره الأخير باتجاه الاكتفاء برسم بعضٍ من الموضوع ممّا اعتبر مقدمة لظهور نوع جديد ومتقدّم من الكتابة، وهو الكتابة الهيروغليفيّة.

ويعدّ ظهور هذه الكتابة ثمرة الارتقاء بسبل وأساليب تلبية الحاجات الطبيعيّة وتنوع الحاجات الثقافيّة وتطورها عند البشر. وما ساعد على ذلك وعزّز كثيراً من دوره هو ظهور النزعة إلى الاستقرار لديهم وإعمار القرى والمدن مع كلّ ما تضمنه من نمو اقتصاديّ وفائض في الإنتاج دفع نحو إقامة علاقات تجارية داخليّة وخارجيّة معقدّة.

والهيروغليفيّة هي منظومة علاقات وقواعد ينبغي مراعاتها لإيصال الأفكار إلى الآخرين. ولذا فإنّ استعمالها يسمح بنقل نصوص كاملةٍ. على أنّها لم تكن كذلك في جميع أطوارها. فقد بدت في طورها الأول قريبةً من التصوير لما كانت تحتويه من رموز ذات صلة بالظواهر التي تثبتها. وبعد ذلك عرفت تحولات تدريجيّة باتجاه إسقاط كافة أجزاء الموضوع باستثناء واحد من عناصره التي تدل عليه بصورة مباشرة و واضحة (الدائرة تدل على الشمس، والقوس على القمر..).

ومع غياب وجه شبه الهيروغليفيّ بالموضوع الذي يدل عليه أضحت الكتابة الهيروغليفيّة في أطوارها الأخيرة أداةً للتعبير عن مضمون الفكرة المعمّم. وبذا تكون هذه الكتابة قد اكتسبت القدرة على تعميم الأفكار وتجريدها.

ولهذه الكتابة مزية أخرى تتجسد في كونها وسيلة جبارة لتبادل الخبرات بين مختلف تجمعات الأرض وشعوبها. فما يكتب على ألواح الفخار وورق البرديّ وسعف النخيل ليس موجهاً إلى أُناس بعينهم، وإنّما إلى كافة الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة.

ومن الهيروغليفيّة وبعد مخاضٍ طويل ولدت الكتابة المقطعيّة (المسماريّة) والصوتيّة التي تتخذ من الفونيم والحرف وحدة أوليّة لها.

والحرف كتابة أو نطقاً ليس له معنى. والعلاقة بين الشكل والصوت، أو الحرف المكتوب والنطق به إنّما هي علاقة شرطيّة تتشكل نتيجة ارتباطهما في الذهن. ولقد مرّت هذه الكتابة بمراحل عديدة، بدأت في أولاها برسم أحد عناصر الموضوع. وركزت في الثانية منها على المقطع الصوتيّ باعتباره وحدة للكتابة. ولما كانت الأشكال أو المقاطع الصوتيّة كثيرة ممّا يجعل استخدامها عملية صعبة، فقد تم الاستعاضة عنها في المراحل الأخيرة بالحرف الصوتي وكنتيجة للجهد الذي بذله البشر صارت اللغة المكتوبة منظومة من الإشارات الهندسيّة التي تتخذ كل واحدة منها شكل الحرف باعتباره الوحدة الأساسيّة للغة المكتوبة. واتصال عدد من الحروف يؤلف الكلمة أو المفهوم الذي يعمّم مجموعة من الموضوعات أو الظواهر أو الكائنات الحيّة وغير الحيّة ويشير إلى ما بينها من صلات وعلاقات وما تقوم به من أفعال وما يصدر عنها من حركات في الماضي والحاضر والمستقبل (3، 95، 98).

أما وقد اعترف العالم ممثلاً بنخبه من المؤرخين والعلماء والمثقفين بفضل أسلافنا الذين عاشوا في المشرق العربيّ عليه ومآثرهم الخالدة في الانتقال بالبشريّة إلى عصر الكتابة الهيروغليفيّة والمسماريّة والصوتيّة فإنّه لزاماً علينا أن ننحني أمام عظمة إبداعاتهم التي كانت نتاج نشاطهم الجماعيّ وقدراتهم العقليّة الراقيّة.

لقد استطاعت شعوب المنطقة العربيّة من متابعة رحلة اللغة والكلام. فتطورت بفضل فعالياتهم المتنوعة ووظائفها، وتطورت معها قدراتهم على معرفة الواقع وتغييره تلبية لحاجاتهم الطبيعيّة والثقافيّة.

ولنا أن نتصور الجهد البدنيّ والنفسيّ الذي بذله الإنسان عبر سنوات هذه الرحلة الطويلة والشاقة في تطوير الإشارات المنطوقة والمكتوبة، وأن نتخيل معاناته في هذا السبيل. وهو الذي كان يقف أمام كلّ شيء وظاهرة وواقعة وحالة وعمليّة ليطلق عليها الكلمة المناسبة ويعبّر عنها وعن موقفه وشعوره تجاهها بجملة تفي بالغرض.

وكحصائل لتلك الجهود والمكابدات ترانا اليوم أمام هذه المنظومة الثرّة من الإشارات الكلاميّة. فلا نكاد نعرف كائناً حيّاً أو غير حيّ إلّا ويحمل اسماً خاصاً، أو صفة محسوسة أو مجردة إلّا ولها مفردة تدلّ عليها، أو فعلاً إلّا وله كلمة تعبّر عنه...إلخ.

إننا نعتقد أن ما تمّ عرضه في هذه العجالة التي تقتضيها وظيفة المقالة من أطوار كان يشهد هذا النشاط مع تعاقبها مزيداً من التنوع والتعقيد يدللّ بصورة قاطعة على دور الجهد البشريّ الجماعيّ في ظهور اللغة والنشاط الكلاميّ وتطورهما.

ومن هذا المنظور يكون النهوض باللغة العربية مرتبطاً بتطور كافة أوجه النشاط الاجتماعيّ والاقتصاديّ والعلميّ والتقنيّ والأدبي والفنيّ. وتمدنا الحضارات التي ظهرت على سطح كوكبنا منذ نحو عشرة آلاف سنة تقريباً حتّى اليوم بالبراهين على صحة هذا المبدأ. فقيام هذه الحضارات إنّما هو نتاج ارتقاء مستوى النشاط البشريّ التعاونيّ المنتج والمبدع. ولعلّ من الصعوبة بمكان أن نتصور ظهور الكتابات الهيروغليفيّة في مصر والمسماريّة في العراق والأبجدية في سورية خارج سياق التطور العلميّ في الهندسة والحساب والكيمياء والطبيعة والزراعة وفن العمارة والتطور الصناعيّ والفكريّ والفنيّ والأدبيّ،

وارتباط ما أُحرز من نجاحات في هذه الميادين وغيرها بقدرات البشر على الإفادة منها في حياتهم اليوميّة وتوظيفها في تقدم مجتمعاتهم.

وربما وجدنا في الحضارة العربية – الإسلاميّة برهاناً إضافيّاً أكثر وضوحاً. فما كان بمقدور اللغة العربيّة أن تبلغ ما بلغته خلال هذه الحضارة من ازدهار لولا جهود علماء الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء، والأطباء والفلاسفة والفنانين والأدباء، وظهور مؤسسات اجتماعيّة ودينيّة وفكريّة جسدت تنوع المعاشرة بين الناس وتعقيداتها زيادة على إنشاء أجهزة للدولة التي بسطت سلطتها على رقعة واسعة من الأرض وشملت شعوباً متعددة من سكان المعمورة.

وفي ظلّ هذا الواقع وجدت مئات المفردات والتسميات والمصطلحات الدينيّة والعلميّة والفلسفيّة والتقنيّة الجديدة طريقها إلى معجم العربيّة، ودأبت أعداد كبيرة من علماء اللغة آنذاك على وضع قواعد لاستعمالها في التبليغ الشفهيّ والكتابيّ ممّا أدى إلى نشوء فروع لها (النحو، البلاغة، العروض....) وأجناس أدبيّة إلى جانب الشعر كالمقالة والمقامة والخطابة والقصة... إلخ، كانت تتقدم وترتقي بوتائر سريعة.

وبالمقابل فإن سبب دخولنا النفق المظلم الذي بدأت به عصور الانحدار، ومن ثمّ تراجع العربيّة وجمودها يكمن في توقفنا عن ذلك النشاط الجماعيّ التعاونيّ العمليّ والذهنيّ المنتج. ومع هذا التوقف توقّف تأثيرنا الايجابيّ في ذواتنا وفي الآخرين.

وبينما كنا نتقهقر وننكفئ كان الآخرون ينهضون ويغذون السير وينشطون. وبذا أخذت رغبات أسلافهم تتحقق. فقد كانت اللغات الأوروبيّة تتقدم بموازاة نجاحات أهليها في ميادين العلم والأدب والفن، حتّى أصبحت تتصدر في عصرنا لغات العالم.

وفيما يتصل بما ينبغي عمله لتطوير لغتنا، فإن أمامنا وأمام الأجيال القادمة مهمات كثيرة. وعلينا أن نعلم قبل ذلك أن التطوير النوعيّ للّغة يمرّ عبر النهضة الشاملة بكافة مناحي الحياة. ولقد ألمحنا في أكثر من موضع إلى العلاقة الجدليّة بين اللغة والتفكير. فتطور أيّ منهما يؤدي إلى تطور الآخر. ولتطوير أحدهما يجب تطوير الآخر. ويبقى النشاط بجانبيه العمليّ والذهنيّ هو الشرط الذي لا بدّ منه في جميع الحالات.

إن للكلمة في عصر الجمود الاجتماعيّ والثقافيّ والعطالة الذهنيّة وقعاً رتيباً. فهي تذبل وتضمر عندما تفتقد للرعاية من جانب الفكر والعقل. بينما تستعيد نضارة شكلها ومبناها وجاذبيّة مضمونها ومعناها في عصر النهوض. وهذا ما يغري العالم والأديب والفنان ليبحث فيها كل من زاويته عما يعتبره غلافاً شفافاً لاختبار حريته.

وفي عصر النهوض لا يعود توظيف الكلمة في العلم والأدب والفن رمية زهر أو ضربة حظّ بقدر ما يغدو نقلة قطعة شطرنج يقوم بها لاعب محترف. وفيه أيضاً يحس الإنسان الحقيقيّ بشيء ما يعتمل في داخله ويبحث عن كلمة يرتديها ليخرج إلى رحاب وعي الآخر لتهبه دفقة انعتاق من النرجسيّة والتعصب.

المراجع :

1. التفكير واللغة. مجموعة من المؤلفين بإشراف د.ب. غورسكي. بوليتيجسكايا ليتيراتورا، موسكو، 1957. – بالروسيّة - .
2. عامود بدر الدين. التعليم والتطور النفسيّ عند الطفل في مرحلة الروضة. ط1، مركز تنمية الطفولة، الرياض، 2011.
3. عامود بدر الدين. التعلم والتعليم والتطور العقليّ. الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2008.
4. علم النفس العام. مجموعة من المؤلفين بإشراف الأستاذ أ. ف. بتروفسكي. بروسفيشينيه، موسكو، 1970. – بالروسية - .
5. اليافي عبد الكريم. دراسات فنية في الأدب العربي. جامعة دمشق، دمشق، 1963.
6. http://www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=4

❑❑